خليل السكاكيني إلى آخر القدس، وإلى آخره

أكرم مسلّم*

صدر عن مؤسسة الدراسات المقدسية ومركز خليل السكاكيني ما بين الأعوام ٢٠٠٣ و٢٠١٠ ثماني مجلات، تحتوي على الأوراق والرسائل والمذكرات الكاملة لخليل السكاكيني. وقد حرّرها أكرم مسلّم كاتب هذه الدراسة، التي تنظر إلى الأعمال الكاملة للسكاكيني في الفترة الممتدة ما بين ١٩٠٧ و١٩٥٢.

كان عنق خليل السكاكيني على مرمى قرار طائش من حبل المشنقة العثمانية في تلك الليلة الحالكة من ليالي سجن دمشق المعلّق، بسبب يهودي أميركي اسمه التر ليفين، ومن ليفين هذا اشتكى في تلك الليلة من ليالي العام ١٩١٧.

كان الحدث العام من عيار سقوط إمبراطورية، والحدث الخاص تحدي إمبراطورية في لحظات سقوطها: إيواء خليل لليفين، الذي لم يلتزم بأمر الإمبراطورية للجاليات الأجنبية مغادرة القدس.

لكن: مم اشتكى خليل؟

كانت حصته في سجن يملؤه البق والقمل فرشةً مهترئةً واحدةً يتقاسمها مع ليفين، لكن ليفين هذا (يقول خليل) كان عادةً ما يزحف في الليل على حساب نصف صاحبه في البلوى، بل سبب بلواه، طارداً إياه إلى حافة البرد، وهو الذي آواه انتصاراً لقيمه العربية والإنسانية، وهو الذي أرّقه في تلك الليالي احتمال أن يَشعر "صاحبه" بمسؤوليةٍ ما عن البلوى، ليستبق الأمر، فيقنعه بأن ما حدث لكليهما لم يكن غير تدبير قَدَر أحمق الخطى، ليس إلاّ!

تغري تلك التجربة الشخصية مع "القسمة" و"التوسعات السريرية" بإسقاطات سياسية كثيرة على الحاضر (سواء أكان ليفين جاسوساً أميركياً كما نشرت بعض المصادر لاحقاً، أم لا)، لكن ما يهمنا أكثر هو ما تكثّفه الحادثة من ضوء على روح خليل، وما تؤطّره من تجربته الفريدة، وما تستدعيه من تراجيديا توقظ السخرية المرّة عند سحبها على عموم الحكاية الجماعية وملابساتها، تلك التي حرسها خليل على امتداد مسيرة حياته، خيارات وممارسةً وتسجيلاً فذّاً عبر يومياته هذه في آن.

لم تنته حكاية "الشاعر" ليفين، ففي مطلع الثلاثينيات يصدر له ديوان شعر يهديه إلى خليل بتوقيع يستذكر فيه إنقاذه لحياته، وبعدها بقليل ينتحر، يذكره خليل بالخير في رسالة لولده سري، ويستذكر التجربة، وتلفته المفارقة التراجيدية التي يفلت بموجبها شخص من مشنقة الأتراك، بمعجزة، ليشنق نفسه بيديه.

ورغم ما تطورت إليه الوقائع في الثلاثينيات، وما انكشف له من مستور، وما تأكد له من مخاوف كان أول من هجس بها من أولى لحظات الانتداب، أعاد خليل تأكيد أنه لم يندم على ذلك الاقتراب من الموت في سبيل إنسان، وأنه لو عاد الزمن فسيؤوي ذلك اليهودي (وليس الصهيوني) الهارب ليلاً، والملتجئ إلى بيته، انتصاراً لقيمه العربية وقناعاته وإنسانيته المرموقة النابعة من تصورّه لما ينبغي أن تكون عليه الأشياء....

ولكن السياق الجماعي الطاحن لجماعة ليفين كان أكثر طغياناً من أن تصمد في مواجهته قصة إنسانية حالمة. كانت صهيونية هرتسل قد استكملت منذ زمن اختطاف (المسألة اليهودية) من سياق إنساني ممكن، لصالح صفقة على حساب فلسطين وإنسانها، عبر حشر المسألة في زاوية قوموية دامية، وموضعتها عميقاً في البنية الكولونيالية على نحو لا فكاك منه.

* كاتب مقيم في رام الله ومحرر سلسلة كتب خليل السكاكيني.

احتاج الأمر ٢٠ عاماً بعد تلك الرسالة، و٣٢ عاماً بعد الحادثة نفسها، وضياع البيت والوطن، حتى يتذكر خليل ليفين على نحو فيه يقين مرير... يعكس خيبة أمل عميقة وغير مسبوقة بليفين، وأكثر منه بالإنسان.

كيف؟

كانت ذروة نكبة خليل السكاكيني على المستوى الشخصي في العام ٤٨ خسارة مكتبته، التي سجل بها في هذا الكتاب الأخير من سلسلة يومياته رثاءً يليق بعاشق كبير، وكان (كما كتب من منفاه في مصر)، تمنى عدة مرات لو يرى الغزاة ديوان "ابن قومهم" فيحيّدوا المكتبة من الصراع، لكن أمله بالإنسانية كما يتضح من استدراكه، أصابه وهن غير مسبوق، بعد أن سلب قوم الذي زاحمه فرشة السجن، "فرشة" الوطن كلها.

"كم قلت لنفسي: ليتني وضعت هذا الديوان في مكان ظاهر من مكتبتي يراه الداخل إليها أول ما يراه منها، حتى إذا رآه اليهود قدّروا هذه الخدمة التي قدمتها إلى أحدهم قدرها، فعفَوا عن مكتبتي لو كان اليهود يذكرون الجميل، ويجزون عن الإحسان إحساناً، ما قولي كذا؟ إن ألتر ليفين الذي بذلت روحي من أجله لو كان حيّاً فرآني في طريقه لكان أول من يطلق عليّ الرصاص، بل لو رآني جريحاً لكان أول من يجهز عليّ. (يومية السبت ١٩٤٩/١/١.)

يرفع خليل، الذي كثيراً ما تجاذبته الآمال والخيبات ولو لحظياً الراية البيضاء ندماً يقطر منه الدم، لأول مرة على امتداد اشتباكه الطويل مع كل شيء، دفاعاً عن منظومة ظل ممسكاً بقنديلها تعصف بذبالته رياح حروب مرعبة.

فها هو يلتقي الثوار المدافعين عن حارته قبيل ضياع البيت بقليل، في أسبوع "قاصف"، يجلس مع حراس القطمون هؤلاء، ليمارس دوره كحارس أبدي على الأخلاقيات:

"قام اليهود بهجوم عنيف على حيّنا القطمون منذ نصف الليل من ليلة أمس ولا يزال مستمراً إلى ظهر هذا اليوم، قذفت فيه القنابل من المدافع وأطلق الرصاص من البنادق على اختلاف هذه وتلك، ونسفت الألغام مما لم يسبق له مثيل.

***

زارنا في هذا الأسبوع "أبو موسى" مع بعض رجاله من المناضلين: إبراهيم أبو دية أبو العبد وهو من صوريف، ومختار رافات أبو عطا، وكامل العريقات، وقد رأيت أن أغتنم الفرصة لأسترعي انتباهه إلى آداب الحرب التي تراعى في كل مكان وزمان." (السبت ١٩٤٨/٣/٢٠ (الظهر)).

وفي وصفه لكمين ناجح للثوار على قافلة يهودية في الجنوب، يستعرض الغنائم الكثيرة التي اشتملت على كميات سلاح كبيرة، بل على دبابة كافية لتعمي الأبصار في ذلك الزمان، لكنها حدقة خليل التي لا يعطلها غباش الحرب، تنشدّ لحقيبتين في واحدتهما بضعة أحجار وفي الثانية كتب، ويتمنى أن ترد هذه لأصحابها، بل يبدي استعداده لردّها بنفسه.

"هذه خلاصة ما اتصل بي من أخبار هذه المعركة، ومما هو جدير بالذكر أن اثنين عثرا على حقيبتين فحملاهما وهما يحسبان أنهما ظفرا بشيء عظيم، فلما فتحاها وجد الواحد في حقيبته قطعاً من الحجارة، ووجد الآخر في حقيبته كتباً في الفلسفة، كأن صاحب الحقيبة الأولى جيولوجي وصاحب الحقيبة الثانية فيلسوف، لو استطعت لرددت كل حقيبة إلى صاحبها، آه لو استطعت، فالعلم لا وطن له. (الأحد ١٩٤٨/٣/٢٨.)

لم يستطع خليل، فما هي إلا أسابيع وحدث ما يكفي لطحن إنسانية اللفتة، ليبدو مشهدها المتخيل فوق أية قدرة على الاحتمال: خليل السكاكيني يحمل حقيبة حجارة يفتّش عن صاحبها بينما يمشي على وطن من ركام.

ولو عاش خليل قليلاً لعظمت خيبته، كان سيعرف أكثر أن العلم صارت له أديان وأوطان، خاصة إذا تغيّر تكهّنه، وخطر له أن صاحب إحدى الحقيبتين لم يكن جيولوجياً، بل أركيولوجياً (عالم آثار)، و"عالم الآثار مشغول بتحليل الحجارة، إنه يبحث عن عينيه في ردم الأساطير" (درويش).

عموماً، هذا "العزف السكاكيني" ليس نشازاً، بل مجرد مثال منسجم تمام الانسجام مع منظومة متماسكة وأصيلة ومثابرة تبدو كخيط خفيّ يربط يوميات خليل كلها.

فما هي ملامح هذا المنظومة وما سرّها؟ أين تكمن قوّتها ومن أين ينبع قصورها؟ وما هي عثراتها؟ ليست هذه الخاتمة مساحة لتقديم إجابات أكثر مما هي محاولة لإقلاق الأسئلة، لكن ليس قبل الإشارة إلى عدة نقاط:

أولاً - إن نشر هذه اليوميات كاملة بحرفيتها فرصة لإعادة قراءة تجربة خليل ومنجزه، عبر تحريره (وهو الحرّ) من القراءة الوظيفية والتوظيفية، بمعنى تحريره من التأويل الأحادي، الذي يحصره بكونه مسيحياً فلسطينياً شاهداً على الوطنية الصادقة العابرة للطوائف، فما أراده خليل أكثر من ذلك بكثير، وأعمق، في كلّ ثوراته: جهوده لتعريب الكنيسة، ثورته التعليمية الرائدة

والجذرية، مواقفه الوطنية الصلبة، علاقته مع الثقافة العربية، أسئلته الوجودية العميقة. أصّل خليل، وانتمى لمشروع حرّية أوسع بكثير من أن يحشر في زاوية أو عدّة زوايا.

ثانياً - لم تتمثل خصوصية خليل بمقولات نثرها هنا وهناك، إنما بأدوات أنضجها مبكراً وبدأب، لتحليل الأمور، حمته من الانخداع بـ "أفلام" كبرى، لكن هذا لا يمنع من الانتباه إلى أن أدوات خليل لأسباب تحتاج إلى بحث، وقفت عند درجة معينة، سبقت زمانها الفلسطيني نعم، ولكنها لم تتمكن من الاستفادة كثيراً من أدوات نظرية كانت دارجة في ذلك العصر.

ثالثاً - وإذا كان خليل نموذجاً معبراً عن حقبته، عبر ما قاله وعبر ما تنقله يومياته من نقاشات نخبوية، ليس من الصعب أن ندرك ركاكة النثر السياسي الفلسطيني، وضعف الإنتاج الأيديولوجي، في ذلك الزمان، ليس من باب إسقاط خبرة الحاضر على الماضي، بل مقارنة الماضي بالماضي، خاصة لمن أتيح له الاطلاع على منتج الماكينة الأيديولوجية والسياسية التي غذّت الحركة الصهيونية وسوّقتها وصوّغتها.

وأخيراً ودائماً: يجدر التنويه بشجاعة خليل ونزاهته، تلك التي جعلته يبقي يومياته على حالها، دون تحرير، ما حفظ روحها وروح زمانها، فكان بإمكانه بسهولة أن يعيد تحريرها وتحويرها لشطب بعض الزلات، أو لتكييفها مع أحدث الاستنتاجات والخبرات، هناك معطيات كثيرة تشير إلى أن خليل لم يعبث بما كتب على الإطلاق.

***

إذاً، يقيم خليل معياره المسلكي وبنيانه المعرفي على ثلاث ركائز لا يمل من تكرارها من أول اليوميات إلى آخرها، تعكس تصوره عن النفس (الروح) والجسد والعقل، فكيف فهم هذه الثلاثية، كيف طوّرها وطوّرته؟ وكيف قدّمها وكيف انعكست على عموم تجربته، وكيف بدت ذروة خيباتها؟ هذا ما سنستعرضه سريعاً، لنرى فيما يلي من محاور اشتملتها اليوميات كيف تتجلى هذه المعايير كضوابط صارمة بلا كلل.

نفوس ليسَت على مقاسه

ربما يكون أكثر الأبيات الشعرية اقتباساً في يوميات خليل، بيت لملهمه المتنبي الذي طالما اقتبس منه، والذي مطلعه: "وما أنا منهم بالعيش فيهم"، ذلك أن الإنسان الذي تصادم معه خليل على الأرض لم يكن، روحياً، على مقاس الإنسان الذي في مخيلته، بما افترض فيه من سمو وأنفة واستقامة وعزة، كانت الفجوة بين المتوقع والواقع سرّاً من أسرار مرارات خليل الاغترابية، لكنها، أيضاً، من روافع اجتهاده الحثيث لردم هذه الهوة، وكأن عدم المطابقة هذا بين الواقع والمتخيل مجرد خلل طارئ من الممكن، ومن الضروري تجاوزه وعلاجه، وعلى كافة الأصعدة.

"أنا غير راضٍ عن الأديان، أنا غير راضٍ عن الشرائع، أنا غير راضٍ عن نظم الحياة، أنا غير راضٍ عن العلم، عن الأدب، عن اللغات، عن الفنون، أنا غير راضٍ عن الإنسان، عن غرائزه وطبائعه وأمياله وآدابه وأخلاقه، أنا غير راض عن الطبيعة، عن جغرافيتها وجيولوجيتها وتاريخها، أنا غير راضٍ عن نفسي والعياذ بالله، نعم أنا غير راض وقولوا فيّ ما شئتم أن تقولوا". (رسالة ١٣/١/ ١٩٣٤، ص٢١٩)

وعلى الرغم من كل هذا الخراب، لم ينكفئ خليل إذاً ولم يعتزل، بل اختار الاشتباك، ذلك أن طوباويته من نوع فريد، فهي محصنة من الوهم بعقل جريء ويقظ، ومسلّحة من اليأس بإرادة عالية، ومؤهلة للصمود أمام الاختبارات والمساومات، هي ليست مجرد قناع، أو مكيدة، أو "إستراتيجية معارضة" تمتطي رواية الهامش لتنقضّ على المركز فتعيد إنتاج ما هو أسوأ منه، كل هذا حصّن خليل أيضاً من الخلط بين الكبرياء والتكبّر، كما حصنه من الوقوع في مديح الفظائع والفاشيات والإبادات، فالطوباوية منطقة وعي ملغومة، إذ بافتراضها طهرانية الإنسان، كثيراً ما تذهب باتجاه التطهير، عبر محاولة العودة إلى الصفر الإنساني النقي، الأمر الذي قد يكون منطلقاً للإبادة بأبشع أشكالها.

لنستمع إلى خليل يقول الأشياء بلغته:

"لا أزال مع الزمان في حالة حربية، ولا تزال العلائق بيننا مقطوعةً والأسباب مصرومةً، فشرارة مني أو منه تلتهم اليابس والأخضر ولا تبقي ولا تذر. لا ينقاد لي ولا أنقاد له، ولا ينزل على حكمي ولا أنزل على حكمه، يطاردني عن نيل ما أريد وأطارده ويغالبني، وأغالبه، حالة ألفتها منذ عرفته وعرفني، لا يلقاني إلاّ محتفلاً ولا ألقاه إلا غير مكترث، ... ويعلم الله أني لا أحب القتال، ولكن ماذا أعمل والدهر يحاول أن يقنعني من الغنيمة بعد الكدّ بالقفل، ومن الحياة بالنصيب الأخس، والذي يطمّعه ما يرى من صغر النفوس ووهن العزائم وسلاسة القياد ومرض القلوب وتكالب هذا السواد الأعظم على الحياة، واعتماده من الصفات الدهاء والمكر والتلوّن

والتملّق" (الكتاب الثالث من اليوميات، ص ١٨٩.)

إذاً إنه صغر النفوس، وإنها الحرب، فارساها الزمان من جهة، ومن الجهة الأخرى خليل:

"العالم يحتاج إلى إصلاح كبير وإلاّ فمصيره إلى الضعف والانحطاط والزوال. يجب أن يكون الإنسان قوياً في جسده وعقله ونفسه. وليس أولئك النوابغ في قوة أجسامهم وعقولهم ونفوسهم من فلتات الطبيعة، بل هم من الطبيعة وحسب أصلها، وكأن ظهورهم من وقت إلى آخر وفي مكان دون آخر، رجوع إلى الأصل، وإيذان أن يكون البشر كلهم مثلهم". (ك٢، ص ٢٠٦)

ينهل خليل هذه العزة، وهذا الميل الراسخ للفرادة والتميّز وحتى الكمال، من منابع ثقافية متعددة، ربما أبرزها بشهادته تأثره العميق بكل من المتنبي ونيتشه، وهو الذي ربط بينهما مبكراً جداً، لكن خلفيات تمجيد خليل للقوة تحديداً مختلفة، ومربوطة إلى المنظومة الأخلاقية خاصته، لذا نلاحظه يواصل ذكر نيتشه بالخير حتى منتصف الثلاثينيات في مراسلاته مع سري فيخاطبه بلسان نيتشه: "تزوج أجمل امرأة"، وبعد موت سلطانة يقود انقلاباً قاسياً وجذرياً على نيتشه، أو أنه يتبين عمق الاختلافات بين ما يقصده كلاهما من المفاهيم نفسها:

لنصغي إليه يفكك فلسفة نيتشه:

وأما نيتشه فقد اشتغل بالعبث، دعا الناس إلى القوة، ولماذا؟ لنلذ بالاغتصاب والبطش والامتصاص والأخذ.

إذاً آنت تُؤثر القوة لأنها أضمن للسعادة في عرفك، فإذاً آنت تطلب السعادة لا القوة، وما القوة إلا وسيلة. لا غاية في نفسها.(..)

ثم إن القوة مسألة نسبية، فمن من قوي إلاّ وهناك من هو أقوى منه، بل قد يتألب الضعفاء عليه فيغلبونه.

ثم لا تكون القوة قوةً إلا بإزاء الضعف، فكأنك وأنت تدعو إلى القوة تقول ليكن هناك ضعفاء لتبطش بهم هذه القوة، فأنت تناقض نفسك، إلاّ إذا أردت بفلسفتك هذه أن تأخذ بها أمتك لا سائر الأمم لتبيد غيرها فلا يبقى على الأرض إلاّ وجه ذي الجلال والأمة الألمانية.

يقسّم نيتشه الآداب إلى آداب السادة وآداب العبيد، ويتغنى بآداب السادة ويضع من شأن آداب العبيد، لا تكون الآداب آداب سادة إلاّ إذا كان هناك عبيد، ولكن إذا خلت الأرض من العبيد فماذا نسمي هذه الآداب.

كان الأولى بك أن تعالوا نضع آداباً إنسانية لا آداب سادة ولا آداب عبيد...

وعلى كل حال لست من المؤمنين بك.

ولعلي أعود إلى هذا الموضوع.

وإذا جاز لي أن أنتقد نيتشه فإني أقول عن فلسفته هذه هي فلسفة العبيد. فإن العبد لا يكفيه أن يتمنّى أن يكون قويّاً، ولكنه يتمنّى أن يكون قادراً على أن يحمل الرجل بإصبع واحدة، لا يكفيه أن يتمنّى أن يكون قادراً على دفع الظلم ولكنه يتمنّى لو يستطيع أن يأكل خصمه. (ك ٧، يومية ٧/٣١/ ١٩٤٠، ص٢٠٣ ٢٠٤)

ومن الفلسفة ينتقل للتطبيقات السياسية:

قد يُعجب الناس بمصطفى كمال وهتلر، ويعدونهما من نوابغ الرجال الذين لا يجود الزمان بمثلهم، وأما أنا فلا أعجب بهما ولو رفعا أمتيهما إلى السماء، ما دام كل منهما منحطاً في بعض النواحي من نفسه، بل أفضل عليهما ذلك الزعيم الهندي غاندي، ذلك الزعيم الهزيل الضئيل العاري الجائع، الذي سعى قبل كل شيء لتطهير أمته من عيوبها. (ك٥ يومية٣ /١٩٣٤/٣، ص ٢٤٨-٢٤٩)

خيبات "السوبرمان"

يجلسون في القاهرة في المقهى، شلّة متقاعدين، مثقلة أكتافهم بالسنين، وأمامهم على الطاولات أكوام أدوية، يتبارون بمعرفة أنواعها، يتناصحون بأفضلها، يجلسون ومعهم ومثلهم خليل، هذا هو خليل في آخر اليوميات، من كان في أولها الفتى الذي يصرع أربعة، والذي يحتمي به مجايلوه الطلاب عند المرور من "محلة المسلمين"، والذي يستحم بالماء البارد في عزّ الثلج، والذي صدّق تماماً، ذات عمر، أن وسيلته مع الجسد لن تخذله.

بين خليل هذا وخليل ذاك خمسون/ ستون عاماً، كان فيها الفتى المقدسي يحاول سحب العالم إلى مربع الكمال، فيما يرسم الزمان غير آبه ببصماته اللئيمة على الروح والعقل والجسد: خليل يشكو النسيان، خليل لا يسمع رنين الهاتف ولا جرس الباب، خليل يشكو صعوبة في التبوّل...

كان في سن الحكمة بعد (ثلاثينيات القرن الماضي) عندما كتب لسري:

"إن أباك يا سري غير راض عن هذا النوع من البشر في حالته الحاضرة، غير راض عن الأجسام والنفوس وأساليب الحياة في كل نواحيها، وهو يعتقد أن هذا النوع من البشر لا يصلح للحياة، وأنه لذلك لا بد أن ينقرض ويخلفه نوع آخر أرقى منه وأصلح، فهو إصلاحي يعمل، مع العاملين وإن قلّوا، على خلق السوبرمان (Superman) وكم يكون سعيداً إذا كان ولده طليعة هذا النوع. (ك٤، يومية ١٩٣١/١١/١٥، ص٩٢)"

يظل خليل ممسكاً بجمرة الأمل، متأرجحاً بين الثقة

والريبة، إلى أن يخطف الموت سلطانة، سلطانته، يرضّه انفراط الجسد على مرأى منه، بل على ملمس من يديه:

... ما هذه الحياة التي تبدأ بنُطفة وتنتهي بجيفة، إذا كان هناك خالق فهل نمجدْ هذه الخليقة، وإذا حاولت أن أقرض البشر فكأني أحاول أن أمحو هذا السُّخف المعيب. (ك ٧، يومية٢،١٩٤٠/٠٧، ص٢٦٨)

يطارد شبح الموت خليل، يسكنه رعب عطب الجسد:

"لا أنفك في ليلي ونهاري أفر في الموت، أنام في فراشي فأحسّ أن التراب غمرني، فأحاول أن أتنفسّ فلا أقدر، أمرّ في الطريق فيُخيّل إليّ أن رصاصة طائشة حطّمت رأسي. ولكن أعود فأذكر كيف قابلت أنت الموت في شجاعة فأقول: لأكن مثلها شجاعاً.." (ك٧، يومية ١٩٤١/٢/١٢، ص ٣٢٥)

يقلّب خليل الأمر على عادته من كل نواحيه، يحاول تحويله إلى معرفة، لكنه لا يجد في الأمر لا حكمة ولا عزاء:

"لا يعزيني أن يكون هناك عالم آخر لا هم فيه ولا غم يقوم إليه الناس. لا يعزيني قول الفلاسفة أن الجسم يفسد وأما النفس فلا تفسد، وأن الموت ليس فناءً ولكنه استحالة وتغيُّر، وأن، الجوهر لا يفنى وإنما تبطل الأعراض والنسب والإضافات، وأن الحي إذا مات بطل حسه وألمه، وأن هذا العدم الذي نخاف أن نصير إليه هو مثل العدم الذي كنا فيه، فإذا كنا لا نخاف من الأول، فلماذا نخاف من الثاني، وأن الحزن غير طبيعي ولا ضروري، وأن الموت ليس برديء وإنما الرديء هو الخوف منه." (ك ٧، يومية ١٩٤٠ /٢/١٨، ص٨٦).

وهنا يسجّل خليل واحداً من انقلاباته: حولته خيبة الجسد الكبرى من داع بالذهاب بالحياة إلى أقصاها وعصرها كليمونة، إلى داع لإسكاتها، ولكن كالمعتاد، على طريقته، ليس انتحاراً تماماً، إنما بالذهاب الجماعي إلى فناء صامت وهادئ وغير مؤلم. إلى هنا يصل خليل المختلف والنزق، العاشق المتطلب والأب اللحوح، والصديق المتطرف، من رثاء داود إلى زيارة قبر سلطانة صباح كل يوم على مدار أعوام:

"موضوع تفكيري في هذه الأيام دعوة الناس إلى الانقراض، وبعبارة أخرى وضع حد لعبث الوجود، لست أعني أن نختار طريقاً عنيفة لهذا الانقراض، كالانتحار أو الإضراب عن الطعام، أو التنفس أو غير ذلك، وإنما أعني انقراضاً سهلاً يستطيعه كل واحد، أي الامتناع عن التناسل. (ك٧، يومية ١٩٤٠/٢/١٨، ص١١٩-١٢٠)

وحده عقل خليل يظل ماضياً يحاول الوصول إلى حل ما، حلّ فريد، حل من داخل المنظومة نفسها، بهذا كان خليل يقاوم الانهيار أمام رهبة الموت، يكثر من تغذية العقل بالأسئلة حول الروايات الدينية في هذه الفترة. لا يستطيع استيعاب معالجة الأمر بالرضى، حتى إنه شبّه الرضى والشكر على الموت بالوضع في المحاكم العثمانية، حيث مطلوب من المحكوم بالإعدام أن يشكر السلطان ويدعو له.

صمت العقل

كما أسلفنا، لم يتعطل عقل خليل بموت سلطانة، لكن شيئاً ما حدث بضياع البلاد، لأول مرّة لا يحوّل خليل تجربة من تجاربه إلى موضوع معرفي، إلى مساحة تفكير وتدبر، إلى موضوع للتأمل العميق، يعني إلى تحدّ للعقل، عندما فقد البيت والوطن توقف لأشهر عن كتابة اليوميات، ليكتب بعدها عن القدس والاقتلاع نصاً تذكرياً فيه رثاء للمكتبة، لكن خليل لم يحلل ولم يناقش ولم يطرح أي أسئلة، وبالتالي لم يقترح إجابات، وكأن الحدث كان أكبر من أن يتصدى له عقل، سكت عقله أو أنه أسكته، مرة حمد الله والجديد الذي أنقذه وأسرته من العوز فكان حالهم أهون من غيرهم، كتب يتذكر وكتب للتذكّر، وبالتحديد كتب تحت

تحت عنوان "لئلا ننسى":

"بهذا اليوم نكون قد قضينا في مصر ثمانية أشهر من الجمعة ١٩٤٨/٤/٣٠ إلى يوم السبت ١٩٤٩/١/١. لـم يخطر لنا في بال أن رحلتنا إلى مصر ستمتد ثمانية أشهر ولا يعلـم إلاّ اللّه متى تنتهي، وكيف تنتهي." السبت ١٩٤٩/١/١

خليل لا يعلم متى وكيف، نقطة وسطر جديد.

قبل ذلك وطوال مسيرته وثق خليل بالعقل ثقة تامة، وبه تصدى للأسئلة الكونية والسياسية والحياتية بعمومها، لذلك نراه منذ مطلع القرن الماضي لا تنطلي عليه الأقنعة مهما كانت ماكرة، ولا الدعايات الحربية أياً كانت محكمة، وكذا في السياسة والتربية، كان يصغي ويحلل ويعود ليركب الأشياء فتخرج مختلفة طازجة ومبدعة، هنا هو يصف منهجه العقلي:

"بعد استكمال فروض الصباح جلست إلى طاولتي أنتظر تلميذي شوكت أفندي ومسلم أفندي فلم يجيئا، ثم ذهبت عند تلميذي الخواجا بيرن فجعل يحدثني عن آرائه الدينية، فلا يسعني إلا أن أقول له: إن بيننا فرقاً كبيراً، أنت تستمد شريعتك من الكتب المنزلة بلا بحث ولا تكبد ولا تدبر ولا تفكير، تسلم بها تسليماً أعمى، وأنا أستمد شريعتي من نفسي وعقلي واختباراتي وحياتي اليومية، لا

أسلم بشيء إلا بعد أن أعرضه على عقلي وعلى ما يؤيده اختباري وحياتي اليومية لا أسلم بشيء إلا بعد أن أعرضه على عقلي وعلى ما يؤيده اختباري واختبار الناس أجمع." (ك٢، يومية ١٩١٧/٧/١٥، ص ٣٥١).

وفي موضع آخر، يبوح كما باح كثيراً بالذي كثيراً ما يتم إخفاؤه:

لم يحاول الناس أن يتقدموا ويرقوا إلا كان الدين من أهم العوامل في تأخيرهم، لولا الأديان وعوامل أخرى منها الحكومات لكانت الإنسانية قد بلغت شأواً بعيداً من التقدم والرقي. (ك ٧، يومية ١٩٤١ /٨/١٨، ص٤٠١).

ولنصغ إليه في الحرب الأولى كيف يسرد نظرته لموضوع إعلان الجهاد المقدس إلى جانب ألمانيا:

"ولو انفردت الحكومة العثمانية في هذه الحرب فلربما راجت هذه الدعوة، ولكن كيف تدعو إلى الجهاد الديني وهي تحارب مع دولتين مسحيتين جنباً إلى جنب. لو كانت الخدمة العسكرية مقصورة على المسلمين دون المسيحيين والإسرائيليين لصحت هذه الدعوة، ولكن كيف يعتقد الجندي المسلم أنه مجاهد ويرى إلى جانبه الجندي المسيحي والإسرائيلي...، فالدعوة إلى الجهاد الديني اليوم لا يقصد بها إلا الدفاع عن العنصر التركي، وتأييد سلطته، لا الدفاع عن الدين الإسلامي. إن الدعوة إلى الجهاد الديني، قد تضر بالعالم الإسلامي أكثر من غيره، لأنها قد تدعو الدول المسيحية إلى دعوة دينية مثلها فتجد الدول المتحايدة [= ملتزمة الحياد] الكبيرة والصغيرة سبباً للدخول في هذه الحرب، أضف إلى ذلك أن الدعوة إلى الجهاد الديني، قد تصرف العالم الإسلامي عن اتخاذ الأسباب الحقيقية للتقدم. " (ك١، يومية ١١/١٨، ١٩٩٤، ص ١٣٣).

عرفنا لماذا بلغت أطروحات خليل السقف، ولكن لماذا لم تفلح في اختراقه، ربما يكون الجواب متشعباً، ولكن أبرز ما ينتبه إليه المتبصر باليوميات أن لخليل رأياً في النظريات الإصلاحية الكبرى، إذ يعتبرها تعالج النتائج، أما الأسباب التي يتصدى لها فهي عميقة في جوهر الإنسان، (تربوية يعني)، ويرى الحلّ هنا أكثر من أي مكان آخر:

"ولكن ما من مذهب قرأته إلا وجدت أنه مع ما فيه من الأغراض العالية لا يخلو من نظرات سطحية لا قيمة لها، لقد حاولوا إصلاح البشرية بطرق لا تكفل إصلاحهم، لا يكفل سعادة البشر أن توزع الثروة، أن تهدم الحكومات، أن تلغى الطبقات، أن تحارب الرأس ماليين، أن تنزع السلاح، إلى غير ذلك من الوسائل، وإنما يكفل سعادة البشر أن نغير طبائعهم، أن نهذب غرائزهم وأميالهم، ماذا يفيد توزيع الثروة إذا كان الناس في غرائزهم ماديين، ماذا يفيد نزع السلاح إذا كان الناس لا يزالون يميلون بغرائزهم إلى الاعتداء والاغتصاب. (ك ٦، يومية ١٩٣٥/٣/٢١، ص٦١)

وربما تضيء نظرة خليل للمرأة(مع كل اجتهاده لإنصافها ورفع سقفها) جوانب كبّلت خليل، حيث تبدو نظرته للمرأة من أكثر المكونات محافظة في شخصيته، استعصت على التكسير في أميركا ودمشق، وبعدها.

صدمة الدمشقيات!

فخليل وإن كان يدين هيمنة الرجل، ويدعو لتحمل المرأة مسؤولية شرفها، إلا أنه يعاود تشخيصها بالمنظور الذكوري.

شقِي خليل كابن لمدينة داخلية محافظة في فهم واقع المرأة في أوروبا، وعلى نحو أوضح في دمشق حيث سهر الليالي الطويلة بحضرة الأوانس، من دمشق المدينة الكبرى التجارية والعريقة، حيث بقي عدة شهور بعد مغادرته السجن، لنصغي إليه يشكو، وكيف ومم يشكو:

"كم أفتخر بسلطانتي وأختي ميليا، فإن أخلاقهما أقرب إلى أخلاق الرجال منها إلى أخلاق النساء. يعجبني منهما بنوع أخص استقلالهما وشرف أخلاقهما وعزة نفسيهما وذكاؤهما وسرعة خاطريهما وأخلاقهما الراقية، كأنهما ليستا من نساء هذه البلاد." (ك٢، ص ٢٣٣).

كنت قبل اليوم إذا تغربت عن بيتي أرتاح إلى رؤية الغيد الأوانس وأما اليوم فإنني لا أشعر بوجودهن، وليت أدري، هل ذلك لأني تقدمت في السن أو لاشتغال نفسي بالشوق إلى أحبائي، أو لاشمئزاز نفسي لحال المرأة في دمشق." (ك٢، ص ٢٥١).

ويكتب:

"رأيت من الفتيات اهتماماً عظيماً باسترعاء انتباه الفتيان إليهن، فلا يزلن في الاجتماعات يمازحن الفتيان ويتحرشن بهم بأيديهن، ولو خرجن عن حدود اللياقة، وهن لا يبرزن أمامهم إلّا مكشوفات السواعد وأعلى الصدور، مصبوغات الوجوه بثياب قصيرة لا تتجاوز الركب، وجوارب شفافة تكاد تكون معها سيقانهن عارية، وإذا جلسن وضعن رجلاً على رجل ليظهرن سيقانهن. وقد بلغ الأمر من بعضهن أنهن قد كشفن عن سيقانهن أمامي، وجعلن يسألنني ساق من أجمل، وقد بالغت إحداهن في الكشف عن ساقها حتى بدت ركبتها بل ما فوق ركبتها، فقلت لها تستطيعين أن تسألي أمك عن ذلك." (ك٢، ص٢٧٢).

وبعد عودته للقدس، يناظر أحد تلاميذه بمنطق لو وضع تحت عدسة الجندر المعاصرة، لتم إشباعه نقداً:

"علمت الخواجا ابري، تكلمنا عن المرأة في الغرب والشرق، قلت له من جملة الكلام: إن المرأة في الغرب قد فقدت مركزها الأنثوي الجميل، وبعد أن كانت معبودة الرجل وموضع محبته وعنايته، أصبحت خصيمته لمزاحمتها له في أعماله، وفي ذلك خطر على كيان العائلات ... كل يوم تستحكم المودة بيني وبينه."

وفي قفرة إلى الثلاثينيات، في رسالة لسري يكتب:

"لا أستغرب أن تلاحقك هؤلاء الفتيات، يكتبن إليك ويطلبن منك صورك، وقد يطمعن فيك طمع إبليس في الجنة، فإن فتيات هذا العصر لا يستغرب منهن شيء، ولا يمر يوم إلا سمعنا من أخبارهن ما يندى له الجبين حياء، بل ما أكاد أعتقد معه أن المرأة في بعض أدوارها تكون أقرب إلى الجنون منها إلى العقل." (ك٤، رسالة ١٩٣٢/٩/١٧، ص ٣٣٠).

وفي مكان آخر يلمع عقل خليل:

"لكن إذا قابلنا بين حرية المرأة على ما في ذلك من الخطر أحياناً وبين استبعادها وإنكار الحرية عليها بحجة أن ذلك أصون لشرفها، لرأينا أن الحرية أنفع لها وأعون على ترقيتها، وأن سقوط المرأة مع الحرية أقل من سقوطها مع عدم الحرية. على أن سقوط المرأة ليس نتيجة لازمة عن حريتها أو عدمها، بل هو في الأغلب نتيجة عن الضعف البشري في الرجال والنساء عموماً ثم لا تسقط امرأة إلاّ ويسقط معها رجل، فلماذا تمنع المرأة حريتها ولا تمنع الرجل حريته ... ما هو الشرف؟ يختلف الشرف في الأمم باختلاف عوائدها واصطلاحاتها وتقاليدها، بل يختلف في الأمة الواحدة مع الزمان." (ك٢، ص ٣٠٨).

ربما أن خليل لم يتذوت تماما الفردانية، ولم يستطع التعاطي مع الفرد كوحدة أساسية مسؤولة عن مصيرها وخياراتها، وأيضاً نظر خليل عموما للجنس بعمومه في إطار الزواج وخارجه كشيء دنس، وكشيء من مخلفات الحيوانية في الإنسان، بل كشيء مرضي.

ولست أدعو إلى كبت هذه الغرائز الموروثة عن أجدادنا الحيوانات، ولكن إلى التسامي بها واستعمالها في مطالب عالية، وهنا قد يكون للطلب دخل، لأن هذه الأمراض العقلية أو الانحرافات في الأخلاق قد تنشأ عن مرض أو ضربة، أو غير ذلك، وقد لا ينجع فيها إلا سكين الجراح، وإني من المتفائلين جداً، انظر الغريزة الجنسية، فقد تدرج فيها الإنسان من الزنا، إلى الزواج، ومن تعدد الزوجات إلى الوحدة، ثم إلى الرهبانية، فالأمة التي تقدس قانون الزواج أرقى من الأمة التي تزني، والأمة التي تكتفي بالزوجة الواحدة أرقى من الأمة التي تعدد الزوجات، والأمة التي تميل إلى الرهبانية للانقطاع إلى الدين أو العلم أو خدمة الإنسانية من أبواب مختلفة، هي أرقى من الأمة التي لا تفكر إلا بإشباع هذه الغريزة الحيوانية، بطرق مشروعة أو غير مشروعة. (ك٤، ص١٥٨)

هنا إذاً يكمن قيد من قيود خليل، الذي يلامسه بنفسه، في ما يشبه المراجعات التي ضمتها رسائله لسري، تكشف أن خليل كثيراً ما حدّق في الأمور من داخل الكهف الأفلاطوني، ورغم أنني مقتنع أن فشل خليل في أميركا له علاقة أيضاً بإدراكه المبكر لذاته كصاحب مشروع كبير في وطنه، وهذا ما ثبت لاحقاً، إلا أن عدم قدرته على بناء مسافة مع أدواته الشرقية تصلّب أدواته النظرية فيستطيع تحويل الذات إلى موضوع تأمل من حين لآخر، كان سبباً في التعثّر أيضاً، هنا هو يعترف لسري:

"لست أستغرب حنينك إلى البيت، واستيحاشك من أميركا، فقد سافرت قبلك إلى أميركا وكنت أكبر منك سناً، بل كنت رجلاً تام الرجولية، ولم أملك نفسي أن أحنّ إلى قومي بل أبكي لفراقهم، ولم تكن أميركا بكل عجائبها وغرائبها لتشغل بالي عني أو تملأ عيني، ولكن حين أذكر ذلك الآن أستسخف عقلي." (ك٤، ص٣٩).

ويطيل خليل الشرح في هذا الموضوع، ويكشف لابنه عن مراجعاته الذاتية، هادفاً إلى تثبيته في أميركا؟

يوم كنت مسافراً أنا إلى أميركا وعرجنا على باريس وأقمنا فيها عدة أيام، وقد كنت شرقياً قحاً لا غش في، فلما رأيت ما رأيت، عقدت مناحة على باريس، وهذا ما كتبته في مذكرتي بحرفه.

باريس سيجيء يوم يندم فيه الإنسان أنه وضع حجراً في أساسك، وبدلاً من أن تكوني كعبة القصاد يتجنبك الناس كي يتجنبوا الأماكن الموبوءة، وإذا مروا بك مروراً في أواخر الليل حين ينتهي آخر فصل من تلك الفصول المضحكة المبكية التي تمثل في شوارعك..." (ك٤، ص٨٧)

ويوضح أكثر: لست أول من حكم على أوروبا وأميركا بالانحطاط، فقد ذهب قبلك كثيرون من الشرقيين إلى أوروبا وأميركا، وكان حكمهم عليهما أشبه بحكمك على أميركا لأنهم بنوا حكمكم على قياسهم الشرقي، بل أنا نفسي وقعت في ما وقعت فيه أنت، لأني يوم سافرت إلى أوروبا وأميركا كنت شرقياً قحاً لا أرضى عن شرقيتي بديلاً... (ك٤، ص١٢٠)

خليل السكاكيني سياسياً

عندما تلتبس الممارسة السياسية الملتزمة مع شهوة السلطة وتختفي الحدود بينهما، يطفح زبد أحمر على زوايا الشفاه، تُخطف البديهيات الوطنية، يعم الخراب، ويمعن "المعنيون" في نهش لحم الوطن، مادة ومعنى، على اعتبار أن الوطن أكبر من بطوننا جميعاً، تطغى "الطوش" الشخصية بديلاً لاشتباكات الرؤى، يحدث هذا في كل الأزمان، وحدث في القدس بينما الطوفان يقترب، وكان خليل يرى ويسمع ويكتب، كان يحاول أن يتبيّن الخيط، وقبل أن نشم معه بعض ما أزكم أنفه، لنصغ إلى فهمه العام للممارسة السياسية، يسرده للمفتي في بدايات الانتداب:

"التقيت بالحاج أمين أفندي الحسيني، فمشينا معاً وتحدثنا في الأمور العمومية، قال: أنا أكره السياسة، ولكن لا أرى بداً من الاشتغال بها الآن، فقلت له: إذا كان المقصود من السياسة البحث في حرية البلاد وسعادتها وتوفير أسباب تقدمها وارتقائها، فيجب على كل واحد أن يكون سياسياً، وأما إذا كانت السياسة مراوغةً ودهاءً وخدمةً للمصالح الشخصية، فهذه سياسة مكروهة ممقوتة... (ك ٣ ص٤٦)

ولنذهب بقفزة هوائية إلى العام ١٩٤٥:

زارنا في الـمساء الدكتور حسين الخالدي مع سيدته، والأستاذ أحمد الخالدي مع سيدته، وابن الخالة متري فراج مع سيدته.

خلاصة ما يذهب إليه الدكتور حسين أن الخطر على فلسطين يشتد يوماً بعد يوم، وأن ما قمنا ونقوم به من الأعمال لدفع هذا الخطر غير مجدٍ.

مكاتب الدعاية في لندن وواشنطن لا فائدة منها لأننا لـم نحسن اختيار العاملين فيها.

الجامعة العربية لا فائدة منها لأن العمل فيها موكول إلى أناس لا يعرفون كيف تبنى الأمم.

اللجنة العليا الفلسطينية مفككة متنافرة، بالأمس وقع خلاف بين أحمد حلـمي باشا والأستاذ عبد اللطيف صلاح فتسابّا، ولولا القليل لتضاربا. عبد اللطيف يقول له: يا أرناؤوطي! وأحمد حلمي باشا يقول له: يا سامري. (ك ٨، الأربعاء ١١/٢٨/)١٩٤٥.

امتلك خليل إلى جانب معياره الملتزم في العمل السياسي، امتلك بصيرة ثاقبة.

بدأ خوف خليل السكاكيني مبكراً من ضياع البلاد، وتكهن مبكراً جداً بالاقتلاع، ضاق خليل ذرعا بالخلافات الداخلية، استفزته إلى أبعد حد فكرة الانتداب، والاعتقاد بعدم جدارة العرب والفلسطينيين بالاستقلال، انتقد النزعة الأجنبية الذيلية، غرّد (خارج السرب) بدعوة الاندماج مع سورية احتماءً من المشروع الصهيوني، حمل راية مقاومة الهجرة وبيع الأراضي حيثما حلّ، وكان من نبوءاته أن ما تؤسس له بريطانيا وصفة لصراع لن يحلّ إلى الأبد:

"البلاد ليست خاليةً ليتخذها اليهود وطناً قومياً لهم، فإما إن يشتروها من سكانها، ومهما باع الوطني من أرضه فلا يبيع كل أرضه، وأما إن يقنعوا الأهالي أن يقبلوا أن يكونوا تحت حكم اليهود، ولن يقبل الأهالي ذلك، وإما أن يقتنع اليهود أن يكونوا تحت حكم الأهالي، وهذا لا يقبله اليهود، فلا يزال الأمر مشكلاً، ولعله لا يحل إلى الأبد. (ك ٣ ص ٨٢)

وفي كل نقاشاته، يتضح فهم خليل العميق للخطر الصهيوني الذي يعبر عن الفهم العام أيضا، ولكن دون أن ينجر خليل إلى عداء شعبوي، فعداؤه قائم على فهم عقلي ينتمي لمنظومته:

اليوم دخلت مع الخواجا أبري رأساً في موضوع الصهيونية، قلت له: إذا اشتغلت للأمة ووقفت نفسي على خدمتها فليس ذلك لأني أكره الجنسيات الأخرى، أو أني أفضل الأمة العربية على غيرها، بل لأن ذلك واجب علي، أولاً كفرد من أفراد هذه الأمة، وثانياً كفرد من أفراد الإنسانية. وإذا كنت أكره الصهيونية، فليس لأني أكره حياة الأمة الإسرائيلية ونهوضها من الشقاء ودركات الضعف، ولكن لأني أكره المبدأ الذي تقوم عليه الحركة الصهيونية، لأنها تحاول أن تبني قوميتها على أنقاض غيرها. (ك١، ص٦١)

يمتلئ خليل بالأمل أحياناً، وأحياناً ينشد إلى نبوءات سوداء، لكنها مبنية على تأمل عقلي أيضا:

"علي أن أعتقد أنه إذا قرر مؤتمر الصلح أن تكون البلاد وطناً قومياً لليهود، فمهما اتخذنا من الوسائط لحماية حقوق الوطنيين الأصليين، فلا بد أن يضطروا مع الزمان إلى الجلاء عن هذه البلاد".

انحاز خليل لــ "المجلسيين" على نحو لا لبس فيه، حيث رأى في المفتي شخصا مخلصا للمسألة العامة، فيما اعتبر المعارضة مدفوعة بأهداف شخصية وتخريبية:

لا بد أن تكون الآن قد وقفت على تفاصيل المعارك الانتخابية التي جرت بالقدس، ففاز فيها المجلسيون على المعارضين الذين يرئسهم راغب بك النشاشيبي، وكان الفوز باهراً، ابتهجت به فلسطين بأسرها، وما هذه المعارضة؟ قد يظن البعيد أنها معارضة للحكومة، ولكن الحقيقة أنها معارضة للوطنيين أنفسهم. (ك٥، يومية ١٩٣٢/١٠/١٤، ص٣٥٩)

انخرط خليل بحكم الأمر الواقع بعلاقات مع الإنكليز،

وعبر عن إعجاب في مواضع معينة بأخلاقهم وأدبياتهم، لكنهم لم ينافقهم قط، كان واضحاً في مواقفه ونقاشاته، انضم للعمل في الإدارة التعليمية التابعة للانتداب متأخراً جداً، وامتلك جرأة الاستقالة عند تعيين هربرت صمويل مندوباً سامياً، الأمر الذي سجل كنقطة مضيئة في سيرة حياته.

وحتى عندما يقبل خليل العمل في سلك التعليم، يدرك عميقاً كم في الأمر من تراجيديا شخصية ووطنية وإنسانية، فيما تحلق الكثيرون حول السادة الجدد كالأيتام على موائد اللئام، رأى خليل في قبوله تنازلاً موجعاً، ها هو يبث نفسه عميق وجع، يشكو صروف الزمان:

"أليس من موجبات الاستغراب من حوادث الزمان وصروف الليالي أن يمر بي هذا الزمان الطويل وأنا أهيئ نفسي لخدمة البلاد، وأن يكون لي فكرة ولدت، ثم جعلت تنمو، فلما استكملت نموها وآن لي أن أخرجها إلى حيز العمل، تتبدل الأحوال فيجيء رجل غريب ولد وعاش في بلاد أخرى، ونمت عواطفه وآماله في وسط آخر، فيحل في البلاد محل أهلها، فيطلبني للشغل، على حين كان يجب أن نكون نحن الطالبين، ويأخذ علي الشروط فيطلق ويقيد كما يشاء، كأنه صاحب البلاد ونحن غرباء، إن هذا لعجيب" (ك ٣، ص ٢٠٢)

الثمن

منطلقاً من خبرة طويلة، وتجربة قاسية سجلت بصماتها على جسده ونمط حياته، يقول خليل:

"ما أسهل الوطنية إذا كانت دعوى، وما أرخص الفضيلة إذا كانت كلاماً، وما أكثر الحماسة إذا كانت شعراً، وما أكثر الإخلاص إذا كان تصنعاً وتجملاً، وما أكثر العلم إذا كان شعوذةً وتطفلاً." (ك٣ ص ١٩٣)

يجوع خليل ويعرى أكثر من مرة، يشقى، ففي أميركا تصادف سفره إليها مع أزمة

اقتصادية طاحنة، لكن ما يجعل الأمر أصعب هو كبرياء خليل وعزة نفسه وإيثاره، وفي أميركا نراه يجوع بالمعنى البيولوجي للكلمة:

"جاءت الساعة العاشرة صباحاً وأنا لا أزال في فراشي، فجاءني حنا فراج وبقية الأولاد وقالوا: "قم لنذهب نتجول في الطرق فاليوم عيد عظيم عند الأمريكان"، فاعتذرت. فذهبوا وحدهم وبقي عندي نقولا البرغوث. فلما خلا المكان قمت ولبست ثيابي وتناولت سنتاً من جيبي وكلفته أن يشتري لنا رغيفاً نكسر به الصفراء كما يقولون. ولما رجع قسمت الرغيف بيني وبينه ولكنه لم يضع لقمة في فمه حتى خنقته العبرات فترك الأكل وخرج فناديته وأخذت أشجعه وأطيب خاطره، فقال:

"لست أبكي على نفسي ولكن أبكي عليك أنت يا خليل لا تجد ما تأكله". (ك١، /١٩٠٨/١، ص٨٣).

وبعد عودته من سجنه بدمشق، تقسو الأيام عليه، يدرس بعض الطلاب من إنكليز ويهود اللغة العربية، يتعفف عن طلب وظيفة نافراً من تزلف الناس وتزاحمهم، فيسوء الحال، حتى إنه يخرج هائماً يفتش عن دائن، فيعود خائباً منهكاً غارقاً بالعرق:

اشتدت حلقات الضيق. نحتاج إلى ثياب وأحذية. يعزّ على كثيراً أن أرى سلطانة لا تلبس أجمل الثياب وأفخرها، وأن أرى سرياً بحذائه الممزق وثيابه البسيطة، أما أنا فطربوشي أصبح في حالة يرثى لها، ولولا أني أتعهده بالتنظيف لفضلت أن أخرج مكشوف الرأس، وربطة عنقي ممزقة كل ممزق، وحذائي نُقب وصار الغبار يدخل إلى جواربي بحيث أشعر كأني أمشي حافياً، فضلاً عن تراكم الديون علي (استدان من التر ليفين وبكفالته عدة مرات)، وأما الطعام فصرنا نعيش على حواضر البيت، فلم أر بداً من أن أخرج اليوم وأفتش عمن أستدين منه ريثما أقبض من تلاميذي، فتجولت من محل إلى آخر، لعلي أجد أحداً فلم أوفق، فرجعت إلى البيت عيياً من التعب مبللاً بالعرق، فأكلنا ما تيسر ثم نمت" (ك ٣، ص ١٦٣)

في اليوم التالي يلاقيه إبراهيم سعيد الحسيني ويسأله مستنكراً: كيف تعلم في مدرسة يهودية وأنت تحارب اليهود؟ فيجيب بحدة وغضب وعتب: "لا علاقة لهذا بذاك، لا خوف على البلاد إذا علمت اليهود اللغة العربية أو اللغة الإنكليزية، وإذا خشيتم أن يقول اليهود ويعلنوا في صحف العالم أننا اتفقنا مع العرب، فاجتهدوا أن تمنعوا العرب من الإقبال على هذه المدرسة بأن تنشئوا مدرسة تكفيهم الحاجة وتغنيهم عن الالتجاء إلى مدرسة يهودية... ليس الخطر على البلاد من تعليمي في مدرسة ليلية يحضرها عدد قليل من يهود بلادنا وإنما الخطر يرد من عقد الاتفاقات السرية. فبدلاً من أن تتخوفوا من وجودي في مدرسة يهودية، يجب أن تتخوفوا من عدم وجود مثلي في مدارسكم".(ك ٣ ص ١٦٤).

شطحات سياسية

لا تخلو مداخلات خليل السياسية من شطحات، ربما ما ذهبنا إليه من بلوغ تجربة خليل سقفا عاليا ينضج مرحلة كلاسيكية، لكنه يقف على بوابة مرحلة أخرى ولا يتعمق فيها، وأيضا ربما مرد ذلك، أو انه تعبير عن قصور نظري عام نلمسه في الأدبيات العربية في النصف الأول من القرن الماضي، وأقصد بالتحديد، الإسراف في استخدام العبارات غير السياسية في مواطن السياسة، وبالذات استدعاء البلاغات العربية إلى ساحة تبدو فيها اقرب إلى الكوميديا، فمفردات من نوع "التفطن"، و"تأبى عليها كرامتها"، و"العودة إلى الرشد"، و"عار عليك"، عند الحديث عن المسألة اليهودية، هي مفردات لن تجد لها أي معنى في قاموس النظام الدولي:

"الحالة تصير من سيئ إلى أسوأ، ولا عجب فهي صراع بين الحياة والموت، والله أعلم بما يجيء به الغد، ولكني متفائل خيراً، لا بد أن يجيء زمان تتفطن أوروبا فيه إلى الأصابع اليهودية التي تلعب بسياستها فتقلم أظفارها قريباً إن شاء الله. (ك ٦، ص٢٤١)

أوروبا أوروبا! أنت أصل البلاء، ليتنا لم نعرفك ولم تعرفينا، لم يكف الاستعمار حتى زدتنا بوعد بلفور، وإنه لعار عليك أن تكوني مستعمرة ولعار عليك أن تكوني في سياستك خاضعة لنفوذ اليهود، أما من دولة فيك تكره الاستعمار؟ أما من دولة فيك أبت عليها كرامتها أن تكون آلة في يد اليهود. (ك٦، ص٢٤٣)

مع إعجابي بمقالتك، واستشفافي منها أدبك الجمّ وعلمك الواسع وبعد نظرك مما أفخر به، لست أكتمك أني لم أحب أن أنشرها الآن لأنك هاجمت فيها الإنكليز ولا يزال لهم عندي المكان العالي، ولا أزال أعتقد أنهم سيعودون إلى رشدهم، وينصفون العرب قريباً إن شاء الله. (ك٦، ص٢٨٤)

يقع السكاكيني أيضا في نمطيات عندما يتحدث عن جبن اليهود وعدم قدرتهم على القتال رغم إعجابه بتنظيمهم وأمنياته بالانعداء منهم، ويقع أكثر في تعميمات إشكالية، ولا تصمد أمام المعرفة الجادة في التاريخ العالمي، مثل اعتبار الحرب العالمية الثانية حرب يهود، فيما ترتبط الحروب العالمية الأولى والثانية بانقلابات عميقة في موازين القوة الأوروبية، تحديدا بعد توحيد ألمانيا، إلى جانب الصراع على الفضاءات الاستعمارية بعد الانقلابات الجذرية في قواعد الإنتاج، وأشياء كثيرة أكثر جدّية من وصف خليل التالي الذي يتكرر كثيراً:

"ليست هذه الحرب في الحقيقة إلا حرباً بين الألمان واليهود، وليس الإنكليز والفرنسيون وغيرهم إلا آلات مسخرة في أيدي اليهود، فإذا انتصرت ألمانيا فالويل للعالم بأسره من ألمانيا، وإذا انتصر الإنكليز فالويل للعالم عامة وللعرب خاصة من اليهود." (ك٧، يومية١٩٤١/٥/١٤، ص٢٠٣).

يهتف للثورة

لم يكن خليل عنيفاً، لكنه لم يكن خنوعا، كانت سلامية خليل سلامية أسياد لا عبيد، وكان يعرف إن للحرية ثمن، لذا اعتبر الثورة واحدا من تجليات الإنسانية في أبهى صورها:

لست من أنصار الثورات، ولست أكره شيئاً كما أكره أن يلجأ الناس في حل مشاكلهم إلى العنف والقوة، ولكن هذه النتائج من تلك المقدمات والبادئ أظلم. (ك٦، ص٢٥٨)

تفاجأ خليل بثورة القسام، ونقل لنا تفاجؤ الناس، وتحديدا النخبة، رغم كونه تنبأ بثورة ما منذ بدايات الانتداب، لكن خليل سرعان ما انخرط في مديح الظاهرة، وفهمها في سياق ثمن الحرية:

سمع الناس هنا أخبارنا وهم بين مصدق ومكذب، جمعية رئيسها شيخ معمم، وأعضاؤها من شيوخ البر يحملون السلاح في وجه الحكومة، إن هذا الأمر عظيم جداً، وسنرى ما يكون له من أثر وما تتبعه من ذيول، ومهما يكن الأمر فلا بد أن العالم يعرف أن الحالة في فلسطين لا تطاق، وأن الأمة العربية ليست لقمة سائغة، وسنرى. (ك٦ ص١٧٤)

وفي التفريق بين السلامية بمعناها الواسع، وبين التعايش على أساس القبول بالظلم والتبعية، لذا لم يلتبس عليه الأمر رغم ما يكنه من كراهية للحروب، فبالنسبة له إذا كانت المسألة اليهودية مسألة إنسانية يجب على الإنسانية حلّها، وليس فلسطين وعلى حسابها. فها هو يعيد ذات الأفكار في حديث ذي مغزى مع صحافي أميركي، بحضور دافيد ماغنيس، عضو "بريت هشلوم" (تحالف السلام)رئيس الجامعة العبرية، ومن أنصار الدولة ثنائية القومية، يكشف أيضا إن السكاكيني لم يكن رغم نزعته السلامية الإنسانية على تواصل مع الأجسام "السلامية" في الجانب اليهودي في القدس.

يقول خليل:

التقينا مع الصحافي الأميركي فيشر، وبالمنطق ذاته تحدث عوني عبد الهادي، في المجلس كان دافيد ماغنيس

يقول: إن الـمسيحيين في هذه البلاد مثل كل أقلية في كل مكان يميلون إلى التطرف خوفاً من الأكثرية، فقلت له: وكيف عرفت ذلك؟ قال مرّ عليّ في هذه البلاد نحو عشرين سنة، فقلت كيف لا نعرفك؟ من أنت؟ فاستغرب الجميع سؤالي هذا وقالوا: هذا الدكتور ماغنس مدير الجامعة العبرية، فقلت له: أنت هو الرجل الذي سمعت عنه كثيراً ولـم أره، فقال: أنا أعرفك وقد درست اللغة العربية في كتبك، وجعل يثني على كتبي، فقلت له تعال يا دكتور نتصارح، تقول إنه مرّ عليك نحو عشرين سنة، وأنا أقول لك لا بد من مرور عشرين سنة أخرى قبل أن تعرف العرب معرفة أقرب إلى الكفاية، أنت تقول: تعالوا نتفق، ولا جواب عندي إلا حكاية صاحب الحمار... وخلاصة ما دار بيننا أن الدكتور ماغنس لا يرى ما يراه الـمتطرفون من اليهود من أن تكون فلسطين لليهود، ولكنه يرى أن تبقى فلسطين للعرب، ولكن على أن يبقى باب الهجرة مفتوحاً، فقلنا له هذا هو الخطر الذي نخشاه، ثم انفضت الجلسة." (يومية ٤٢/ ٧/٢٦)

السكاكيني يفتش عن سلاح

مرّتان طلب خليل السلاح، ومرّتان ذهب إلى العنوان الخطأ، أولهما في منتصف الثلاثينيات، عندما زاد تنمّر اليهود، وتسارعت اعتداءاتهم:

ذهبت اليوم إلى الإدارة وأنا غاضب على اليهود وإنكلترا، وكان أول ما عملت أن قدمت طلباً بإعطائي رخصة لحمل السلاح قلت فيه "لأن اليهود مسلحون، ولأنهم يضمرون العداء للعرب فلا يقع في أيديهم أحد من العرب إلا اعتدوا عليه.

ولأن الحكومة تداري اليهود وتحابيهم وتدللهم مما جرأهم على الشعب بالقانون لذلك كله أطلب إعطائي رخصة بحمل السلاح". ولست أدري ماذا يكون جواب الإدارة. (ك٦، يومية ١٩٣٥/١٠/٢٦، ص١٦٦)

ونحن أيضا لم نعرف جواب الإدارة لخليل، لا يحتاج الأمر في الواقع جوابا، لكنه يظل مفهوما مقابل محاولة خليل الثانية، فها هو بعد نقل خوف الناس ومحاولة الانتظام شعبيا داخل الأحياء، الأمر الذي انخرط فيه خليل ماليا وجسديا، يقول:

ثم ألفنا وفداً لـمقابلة الهيئة العليا، وكان هناك الدكتور حسين الخالدي وأحمد حلـمي باشا، طلبنا سلاحاً فقالا: ليس عندنا سلاح، طلبنا حراساً، فقالا ليس عندنا حراس، قلنا إذن ماذا نعمل؟ قالا تسلحوا ودافعوا عن أنفسكم، قلنا ليس عندنا سلاح، وإذا اشترينا سلاحاً فليس عندنا من يحسن استعماله، الأمر جدّ ومحلتنا بعد نسف فندق سميراميس لا تأمن أن تهاجم مرة أخرى، فمن واجبكم وأنتم الهيئة العليا أن تمدونا بالسلاح والرجال(..) ثم قلنا: أين الـمتطوعون الـمدربون، أين الـمال الذي يجمع في كل مكان من البلاد العربية والإسلامية، ما أصدق الـمثل علينا: أسمع جعجعة ولا أرى طحناً، فقال الدكتور: قولوا لهم، يعني قولوا للحاج أمين الحسيني، وفي قوله ما لا يخفى من الانتقاد(...) وأما نحن فقررنا أن نتولى الحراسة بأنفسنا وعلى اللّه الاتكال.

لست أدري واللّه كيف نستطيع أن نثبت أمام عدوان اليهود وهم مدربون منظمون متحدون مجهزون بأحدث الأسلحة ونحن لسنا من كل ذلك على شيء..من الخميس ١٩٤٨/١/١ إلى الخميس ١٩٤٨/١/٨

ولا تغفل عين خليل عن الخلافات السياسية، ولا يكفّ عن استهجانها بينما البلاد تضيع:

رجعنا من مصر يوم الثلاثاء ١٩٤٧/٤/١٢ فوصلنا نحو الساعة التاسعة مساءً، أما ملاحظاتي التي أحب أن أثبتها في كتابي هذا فهي:

١ - ظهر لي أن الخلافات بين الحاج أمين أفندي الحسيني وموسى العلـمي شديدة، وأن الذين يلتفون حول الحاج أمين يزيدون هذا الخلاف شدة واتساعاً. ويقال إن جمال الحسيني يؤيد موسى، أو أنه واقع بين نارين، وما أشبه موقفي منهما بموقفه منهما، لا أستطيع أن أتخلى عنهما ولا أستطيع أن أؤيد الواحد على الآخر، وإن كنت أعتقد أن الـمصلحة تقتضي أن نتعاون لا أن نتخاصم، ويظهر لي وأرجو أن أكون مخطئاً أن موسى يحاول أن ينازع الحاج أمين عالـميّته، فقد وضع يده في يد العراق، والعراق مناوئ للحاج أمين أفندي، ومن ذلك أنه يعين للـمكاتب العربية في كل مكان عمالاً من هنا وهناك من سوريا ولبنان والعراق وفلسطين وشرق الأردن، من مسلـمين ومسيحيين ومدنيين وقرويين لغرضين: الأول ليكونوا عمالاً، والثاني ليكونوا أنصاراً.

لكن خليل في موضع آخر يصف الحسيني (وهو الذي همس في أذنه مرّة بأنه سيعود للقدس فاتحا كما صلاح الدين) بما لا يصف به أحداً غيره:

لا شك أن الحاج أمين الحسيني وهو منقذ الأمة العربية عامة وفلسطين خاصة، لولاه لتهدم كيان الأمة العربية. (من الخميس١٩٤٨/٢/١٩ إلى الجمعة ١٩٤٨/٣/٦)

لا تنسوا هذا الاسم: سامي إبراهيم الأنصاري

تخلّد يوميات خليل على نحو يشبه البث الحيّ والمباشر مشاهد نادرة غير ممكنة في أي مكان آخر، في المجتمع والسياسة والحرب، تمنحها نكهة خاصة، محملة بالأصوات والروائح والملمس والروح، وتنبض بالحياة: وصف تفصيلي للمعارك على القدس في العام ١٩١٧ وفي العام ١٩٤٨، وصف جنازة عبد القادر الحسيني، في يوميات خليل أسماء ربما لم يذكرها لولاه أحد، مثل صورة قلمية نقلها لواحد من أوائل أبطال فلسطين، ربما يكون أول من استخدم السلاح من أبناء المدن، بعد سنوات من ثورة القسام، صورة حثّتنا على البحث عن صورة فوتوغرافية، وبعد عدة خيبات، واكتشاف انه لا صورة له في الكتب المنشورة وأن أسرته توزعت على بقاع الأرض، وصلنا إلى صورة ربما أنها تنشر لأول مرة منذ استشهاده، لدى واحد من أقاربه الأستاذ يعقوب الأنصاري، نشرت مع خبر نشر في جريدة فلسطين. (شكر لمحمود شقير ونعيم الأشهب/هامش)

هنا يحكي خليل لسري عن الأنصاري

القدس - السبت ٣٦/٦/١٣

"عزيزي سريّ

بطل آخر سقط بالأمس في ميدان الشرف، بل هو أعظم بطل عرفته فلسطين، هو سامي الأنصاري ابن الشيخ إبراهيم الأنصاري، خال موسى العلمي، لا يجاوز التاسعة عشرة من عمره، وقد كان أستاذاً في المدرسة الرشيدية للغة الإنكليزية فقد كان ممتازاً فيها، وهو من خريجي الكلية العربية للسنة الماضية، فهو حديث العهد بالتعليم بل بالحياة، فتى عالي الجسم مفتول العضل، ممشوق القوام، ثقف لقف، جميل الصورة، مولع بالاستحمام بالماء البارد، والألعاب الرياضية، ... هذا الفتى رأى أن مفتش البوليس الإنكليزي المستر سيكرست، جاوز طوره في الفظاعة يمر في الطريق فلا يسلم أحد من أذاه (..) فكمن له مع فتى آخر مجهول على الطريق بين باب الأسباط وباب الساهرة، فلما طلعت سيارته، وكان معه جندي إنكليزي وكلاهما يحمل السلاح، قفز هذا الفتى إلى السيارة وأخذ يطلق رصاصة على الاثنين فجرحهما جراحاً خطرة.. ولكنه قبل أن يسلم الروح دعا أخاه عبد الأنصاري ولا شك في أنك تعرفه، وقال له: لا تحزنوا فقد قمت بواجبي، واعلموا أني أنا الذي أطلقت الرصاص على الجماهير الخارجة من سينما أديسون، هذا هو البطل الذي سقط بالأمس، وإنه لبطل عظيم، بل أعظم بطل عرفته فلسطين. (ك٦، ص٢٦٢-٢٦٣)

وثائق اجتماعية

أناس كثيرون يدخلون اليوميات، وآخرون يخرجون منها، كثيرون أصبحوا قادة في مجالاتهم، كانوا صغارا في اليوميات وامتد بهم العمر عقودا بعد خليل، هذه فلسطين الحياة، فلسطين اليومي والمعاش، فلسطين العادّية تربي أبناءها، وتبني وتحلم:

عاد طلاب العلوم إلى معاهد العلم، فطلاب بيروت إلى بيروت، وطلاب أوروبا إلى أوروبا، وطلاب مصر إلى مصر، وطلاب مدارس القدس إلى مدارسهم، فأقفرت ملاعب التنس، ومقاعد السينما، واختفت من الشوارع تلك الابتسامات ومظاهر المرح، وعادت الحياة إلى الصمت والكآبة، فإلى الأمام أيها الطلاب الألباء، فأنتم معقد الرجاء ورجال المستقبل، أكتب إليك هذه الأسطر وقد زارتنا أم سمعان عبده. (ك٤، يومية ١٩٣١/١٠/٥، ص٥٦)

ودائما هناك خيبات واستثناءات:

بالأمس كنا نتحدث وإذا بواحد من هذا الفريق الضئيل الذليل الضعيف يقول يجب أن ندرس اللغة اليهودية إذا أردنا أن نعيش في هذه البلاد، وهنا ثار جنوني، وقلت إلي هذا الحد وصل بكم الأمر، بالأمس كنتم إنجليزاً وفرنسيين واليوم صرتم يهوداً، ما أدرانا أنكم غداً تقولون تعالوا ونندغم في اليهود والسلام، اسمع يا رجل عن الأمة العربية تتبرأ منكم وهي تتصدق بكم منذ اليوم على اليهود فكونوا يهوداً أو قروداً فلا يهمنا أمركم، واعلم أنه لو ملأ اليهود فلسطين ولو انهزم الناس أجمعون لبقيت وطنياً وحدي. (ك٦، ص٩٢)

وهنا وصف كوميدي نادر لعقدة الخواجا، لنساء مقدسيات بالغن في تقمّص الانكليزيات:

في بيت أحد هذا الفريق، فلما وجدت السيدة تقلد السيدات الإنكليزيات، تتصدر المائدة وتسأل من عن يمينها أتريد الشاي ثقيلة أم خفيفة، أتريد سكراً، كم قطعة تريد، تسأل من عن يسارها هذا الكعك، وهي تتكلف لطف الإنكليزيات وابتساماتهن، إلى أن جاء الدور لي فقلت لها يا سيدتي أنا لا أشرب الشاي وإنما أشرب قهوة (سادة). (ك٦، ص٩٢-٩٣)

من هي جميلة؟

ولن يخيّب خليل أملنا في التقاط المختلف، فهو في حين يفرد رثاء طويلا لأبي العبد جريس العيسى، من يافا، والد الأبناء الذين صنعوا أول صحافة وطنية في فلسطين، "وهو أول من خرج مع عائلته من دور الطائفية إلى دور الوطنية" (يومية ١٢\١٢٢) ٣٤، فهو لا ينسى إن يمنح مساحة واسعة لجميلة، فمن هي جميلة؟

"كنا ننوي أن نذهب اليوم بقضنا وقضيضنا إلى نابلس لزيارة خالتك "إملي"، ولكن فوجئنا في الصباح بوفاة "جميلة" السوداء أَمَة المرحوم خليل الشوكة زوج عمة أمك، لا شك أنك تعرفها، فعدلنا عن السفر لنقوم بآخر واجب لها علينا، وقد مشى في جنازتها جمهور كبير من الرجال والنساء إلى كنيسة مار يعقوب ومنها إلى مقرها الأخير.. مشيت في جنازتها مطرق الرأس حزيناً وأنا أصور لنفسي كيف اختطفوها من بين يدي أمها، ربما كانت تلعب مع إخوتها وأترابها أمام أكواخهم الحقيرة، فانقض أولئك القساة عليها وعلى من معها فربطوهم بالحبال وساقوهم سوق الأنعام، ربما دخل أولئك القساة أكواخ هذا النوع من البشر والسلاح في أيديهم، فاختطفوا الأطفال، ثمّ تشبث الآباء والأمهات بأولادهم، وكم تشبث الأطفال بآبائهم وأمهاتهم على غير جدوى، وما أدرانا لعلهم قتلوا الآباء والأمهات ليظفروا بغنيمتهم، قتلوا على مرأى من أبنائهم وبناتهم. (ك٤، ص٣١٢)

كم أسفت أني لم أعرف بمرضها الأخير لأذهب إليها وأركع بجانب سريرها، أقبّل يديها وألتمس عفوها، إذا لم يمش يا جميلة في جنازتك أهلك وذووك، فقد مشى كثيرون وكثيرات لا يقلون حباً وعطفاً عليك عن أهلك وذويك، لقد كان من حسن حظك يا مسكينة أن الله ساقك إلى بيت كريم كنت فيه سيدة لا أمة، لقد اشتروك كما تشترى الأنعام لا ليستخدموك ولكن ليعطفوا عليك، ويكفروا عن سيئات الذين اختطفوك، فرحمة الله عليك وعليهم (..). (ك٤، ص٣١٣)

***

برحيل هالة ودمية طويت الصفحة البيولوجية لخليل تماما، وطويت إمكانية إيجاد إجابات لأسئلة كثيرة: من هي مسز سنكير؟ أين ذهبت رسائل سري لوالده ومن ولماذا أخفاها؟ وهل كانت دعوة الانقراض دافع الابنتين الرائعتين لعدم الزواج؟ هل كانتا آخر المؤمنين بالأب الذي أراد يوماً أن يكون نبياً؟ طويت الصفحة وأغلق باب الأجوبة، لكن بانجاز هذه اليوميات تكتب حياة جديدة لخليل "اللغة" ولخليل المواقف والخيارات الإنسانية، وتُنشر أشرعة تنتظر هبوب الريح تحثّها قدما في مشروع الحريّة بمعناه الواسع والمديد.

***

نصوص تقود الحياة، وحياة تلد النصوص، هذه سُنَة اللغة، هذه سنّة الحياة. كنت أنا، من جيل هو آخر من تعلم منك أوّل الحرف على كتابك "الجديد"، معلمي، كانت "راس روس"، أول الكلمات. ويأتي زمان، أفكّ حروفك، وأتعلم منك وعنك على مدار سبع سنوات، قطعتها معك، وقُطعت منّي.

شهدت شبابك، وحكمتك وكهولتك، حضرت حفلاتك وحروبك، وأصغيت لك ولسلطانة تناقشان بناء البيت مدماكاً مدماكاً، ورأيت تقتلع منه.. سبع سنوات طفت فيها فلسطين معك، خفتَ لكنك رأيتهم نقطة في بحر، نحن نراهم الآن في ما تبقى من وطن يكثرون.. سبع سنوات صار لي فيها زوجة وثلاث بنات.. و.. ٧ دفاتر يوميات (هل تصدّق؟).. و.. بيت، صار لي بيت.. وإنهم يكثرون، يدي على قلبي، قلبي على بيتي!

***

وختاماً، في إرادة اللغة ما يوقظ لغة الإرادة أيضاً، مرّة قال محمودنا: "سأقطع هذا الطريق الطويل إلى آخري وإلى آخره". أولع خليل السكاكيني بطرقات القدس بعد أن ذرعها عشرات السنين وحلم بها حيثما كان، ويا للوجع، سُحبت من تحت قدميه فسقط منفيا وكذا مات، جاء آخرها قبل آخره، ومشت على الطرقات أقدام غريبة.

ظلّ رجع صدى الخطى العربية عالقاً على أهداب الكلام في اليوميات الثمينة الوفيّة هذه، ليرسم السكاكيني بميلادها هذا أوّلاً، جديداً لطرقات القدس، ولطرقات فلسطين، واضعاً أقدامنا لنمشي عليها، فيها بها وإليها، لنقطعها، كلّها، إلى آخرنا وإلى آخرها.